هذا خلق اللّه
(١)

يا عجباً للناس لو فكّروا

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى
1425هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في بيت أبي محمد

جرى نقاشٌ هادفٌ بين أفرادِ عائلةِ (أبي محمد) حولَ خَلْقِ الله سبحانه ، وإبداعاتِه : في النفسِ ، والنباتِ ، والحيوانِ ، والأرضِ ، والأفلاكِ ، والأنهارِ ، والمُحِيطاتِ ، وما إلى هنالك .

فقالت (نبيهة) : ولحُسْنِ الحظّ فهناك برنامجٌ علميّ عنوانُه : التفكّر فيما يدور حولنا...

سأل (نبيل) : وهل أَعْلَنوا عن أسماءِ المتحاورين ، أم لا ؟

أجابتْ : نعم ، لقد أعلنوا عن أربعةِ أسماء ، والكلُّ يحملونَ شهاداتٍ عليا في مجالاتٍ مختلفةٍ من العلوم .

فسأل (وليدٌ) عن موعدِ الندوةِ العلميةِ ؟

أجابتْ : في تَمامِ الساعةِ التاسعةِ من مساءِ هذا اليوم...

قفز (أحمد) من مكانِه وقال : إذاً بَعْدَ أن أُكْمِلَ مُشاهدةَ برامجِ الأطفال... ، وبعد تَناوُلِ وَجبةِ العَشاء!!

ضحكَ الجميعُ.. واتّفقوا على أن يَقعدوا في صالونِ البيتِ ، وذلك لمشاهدةِ الندوةِ العلميَّةِ الهادِفَةِ...

* * *

أهمّ طُرُق التفكّر

وفي الموعدِ المحدّدِ اجتمعَ أفرادُ العائلة... ، وراحوا ينتظرونَ بدايةَ الندوةِ العلميةِ...

وفي تَمامِ الساعةِ التاسعةِ ظهرتْ على الشاشةِ الصغيرة شارةُ البرنامجِ... تلاها ظهورُ مديرِ الندوة ، حيث قدَّمَ ضيوفَ الندوةِ... مع مُوجزٍ مُخْتَصَرٍ عن الشهادات التي يحملُها كلُّ واحدٍ منهم ، وعن الأبحاثِ والمقالاتِ والكتبِ التي قدَّمها للناس ، وعن المناصِبِ العلميةِ التي أُوكِلَتْ إليه...

ثم قدّمَ موجزاً عن موضوعِ ومِحْوَرِ الندوةِ العلمية ، وكذلك رقم الهاتف... ورقم الفاكس الخاصّ بالبرنامج لمن أرادَ الاستفسارَ أو

المشاركةَ في ذلك...

... ودارَ حِوارٌ رائعٌ ومفيد... حيث أَدْلى كلُّ أستاذٍ دَلْوَهُ في الحديث عن (التفكّر) ، وتمّتِ الإجاباتُ عنْ كلِّ الاستفسارات والتساؤلات.. وكانت أهمُّ نقاط الندوة ما يلي :

من الأجوبةِ عن استفسارٍ يدور حولَ طرقِ التفكّر ، جوابُ الدكتور (علي) :

هناك عدّةُ مترادفاتٍ متقاربةٍ في المعنى ، مثل : التفكّر.. والتأمّل.. والنظر.. والتذكّر.. ، وأهم طرق التفكّر :

أ ـ ديمومة النّظر فيما حولنا : كأنْ يسيرَ الإنسانُ في ليلةٍ مُقمرةٍ... ويَنظرَ في السماء ليرى آلافاً مؤلّفةً من الكواكبِ والنجومِ ، فيتساءلَ : مَن الذي يَمنعُ هذه النجومَ من الاصطدامِ ببعضها ببعض ؟!

ثم يتأمّل هذه الأرضَ التي يعيشُ عليها ويتساءل : مَن الذي نَظَّمَ فيها هذا النظامَ العجيبَ ؟!

هنا أرضٌ زراعيةٌ... وهناك أرضٌ قاحلة!... هنا تربةٌ سوداءُ قاتمة... وهناك تربةٌ جرداءُ لا تُنبِتُ شيئاً... ، هنا يابسةٌ... وهناك محيطاتٌ وبحار... ، هنا حيوانٌ يسير على أربع... وهناك حيوانٌ يزحَفُ على بطنِه...!! هنا آكِلٌ للنبات... وهناك آكلٌ للّحوم... وهكذا...

لذلك على الإنسان أن يَبقى دائمَ النظرِ في كلِّ ما خَلَقَ الله سبحانه...

وهذه الديمومةُ تؤدّي إلى تصديقِ القلبِ بعَظَمةِ اللهِ وقدرتِه... بعيداً عن الوسوساتِ والشُّكوكِ... ، وستكون نتيجةُ ذلك كلِّه إزالةَ الحُجُب... والتبصّرَ في جوهرِ الأمور ورُوحِها... ،

مصداقُ ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] .

ب - الإصغاءُ إلى تَسبيحِ الموجودات :

وذلك عندما يُدقِّق الإنسانُ فيما خَلَقَ الله ، حيث يتبيّنُ له أنّ هناك تسبيحاً عقلياً - وهو مختص بالإنسانِ العاقلِ -...

وهناك تسبيحاً لا إرادِياً ، وهذا تشتركُ فيه كلُّ الكائناتِ.. ، مصداقُ ذلك قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فكلُّ شيءٍ يسبّحُ اللهَ... بطريقتِه.. ولُغتِه ، حتى الحجارةُ... وحتى الأشجارُ... وحتى الحيواناتُ والجمادات... ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص : ١٨] .

وقال عز وجل : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد : ١٣] .

تفكّروا في آلاء الله

وسأل عريفُ الندوةِ الدكتور (معتز) سؤالاً وَرَدَ من أحدِ المشاهدين : هل نحن مطالبونَ بالتفكّر دائماً ؟ أم أنّ هناك فتراتٍ محدّدةً لذلك ؟!

وجاء في جواب الدكتور ما يلي :

لقد ركّزَ القرآنُ الكريم على عملِ العقلِ الإنساني ، وذكَره في آياتٍ كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤]

وما أجملَ قولَ الشاعرِ في ذلك :

وأفضلُ قَسْمِ اللهِ للمرء عقلُهُ
فليسَ من الخيراتِ شيءٌ يُقارِبُهْ

إذا أَكمــلَ الــرحمــنُ للمــرءِ عَقلَــه

فقــد كَمُلَــتْ أخــلاقُــهُ... ومــآربُــهْ

يعيش الفتى في الناسِ بالعقلِ إنه

علــى العقــلِ يَجــري علمُــه وتجــاربُــه

يَزيدُ الفتى في الناسِ جودُة عقلِه

وإن كــان محظــوراً عليــه مكــاسبُــه

ولقد دخلَ ابنُ عباس رضي الله عنهما على عائشةَ رضي الله عنها ، فقال : يا أمَّ المؤمنين! أرأيتِ الرجلَ يَقِلّ قيامُه ويَكْثُرُ رُقادُه ـ نومُه ـ ، وآخر يَكثرُ قيامُه ويقلّ رقادُه ، أيّهما أحبُّ إليك ؟

قالت : سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتَني عنه ، فقال : « أحسنُهما عقلاً » .

قلت : يا رسولَ اللهِ! أسألكَ عن عبادتِهما ؟

فقال : « يا عائشةُ! إنما يُسأل عن عقولِهما ، فمن كان أَعْقَلَ كان أفضلَ في الدنيا والآخرة » .

وعلى مَنْ وَهَبَهُ اللهُ عقلاً ألا يُضيعَ أوقاتَهُ سُدىً ، إنما عليه أن يتفكّرَ ويتأمّل ، ولذلك عندما سُئلتْ أمُّ ذرّ عن عِبادةِ أبي ذرّ ، قالت :

كان النهارَ أجمعَ خالياً يتفكّر!!

كيف لا ، والرسولُ ﷺ يَعُدُّ التفكّر عبادةً وقُرْبى إلى الله تعالى :

« تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلة » .

* * *

وعدمُ التفكّر يوصل إلى...!!

وانتقل الحديثُ إلى الدكتورِ (بيان).. حيث قال :

هناك بعضُ الأمورِ التي تقفُ حاجزاً منيعاً أمامَ التفكّر ، أهمّها :

أ ـ طولُ الأملِ : حيث يَظنّ الإنسانُ أنّ العمرَ طويلٌ ، فيستغرقُ في الأمورِ الدنْيويةِ ، وينسى أنّ هناك انتقالاً إلى عالَمِ الآخرة .

ب ـ الثّرْثَرةُ : والاستغراقُ في التفاهاتِ ، وينسىٰ الإنسانُ قولَه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

جـ ـ النفسُ ووسوساتُها : والحلُّ الإسلامي

لمجابهةِ ذلك هو : التوبةُ من حبّ النفسِ ، والتواضعُ ، وتأديبُ النفسِ ، وتربيتُها ، ومخالفتُها ومحاسبتُها...

د ـ وساوسُ الشيطانِ : والحلُّ الإسلاميّ قراءةُ القرآنِ الكريم ، والإكثارُ من ذِكْرِ الله تعالى وما إلى هنالك...

... وإلا ، فإذا أَعرضَ الإنسانُ عن التفكّرِ ، فستكونُ النتائجُ غيرَ مُرضية :

لأنه لن يَصِلَ إلى الحقيقةِ ، وبالتالي لن يُحققَ الغايةَ التي خلقهُ اللهُ من أجلِها وهي عُبوديتُه سبحانه ، مِصْداقُ ذلك : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] .

كذلك ، فمن أَعرضَ عن التفكّرِ فإنه لا بدّ وأن يَعيشَ طيلةَ حياتِه مع الغافلين ، وذلك لأنه عَطّلَ

حواسَّه ، ولم يضبِطْ حركةَ حياتِه :

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤٤] .

* * *

وكان ختامُ الندوةِ العلميةِ مع الشيخ الدكتور (عاصم) الذي قال :

ما أكثرَ الآياتِ القرآنيةَ التي تَحُضُّ على التفكّرِ والتأمّلِ ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الجاثية : ١٢-١٣] .

كذلك ، فما أكثرَ المواقفَ التي توضّحُ ظاهرةَ التفكّر في حياةِ وسيرةِ سيّدِ الأنام عليه الصلاةُ والسلام ، ابتداءً من العُزلةِ التي كان يُمارسُها في (غار حراء)...

ومروراً بالوقفاتِ الطويلةِ مع الظواهرِ الكونيةِ... ووصولاً إلى التفكّرِ العميقِ بمُراد الله من الآيات القرآنية...

وعلى هذا المِنْوالِ سارَ الرعيلُ الأولُ من الأمةِ ، من ذلك قولُ عمر رضي الله عنه : ماذا أقولُ لربّي غداً إذا سألني : لمَ لمْ تُصلحِ الطريقَ للدابةِ يا عمر ؟!...

أجل! إنني إنْ نمتُ النهارَ أضعتُ رعيّتي ، وإن نمتُ الليلَ أضعتُ نفسي!!

نسألُ الله أن يجعلَنا من الذين يستمعون القولَ فيتبعونَ أَحْسَنَه ، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

* * *